فولتير والإسلام والنبيّ محمّد
من القروسطية إلى الأنوار

أ.د سليمة لوكام

جامعة سوق أهراس

الملخّص:

منذ زمن بعيد يعود إلى العصور الوسطى، تشكّلت في الغرب صورة للنبيّ محمّد تفاوتت في ملامحها وتفاصيلها، وقد كتبت أقلام عديدة حياته بعضها مدح وتعاطف، وهم قلّة، وبعضها الآخر قدح مدفوعا بحميّة صراع دينيّ مسيحيّ إسلاميّ.

اخترنا في هذا المقال أن ننشر بقعة ضوء على مسرحيّة "التّعصّب أو النبيّ محمّد" لأحد روّاد الأنوار في فرنسا، وفي أوربا، "فولتير"، محاولين قراءتها في ضوء أعماله الأخرى التي تمحّض فيها للموضوع ذاته، مركّزين على أهمّ المرجعيّات التي أسهمت في تشكيل صورة أولى أقلّ ما يُقال عنها إنّها هجاء لاذع وهجوم صريح، و صورة ثانية أقرب إلى الإنصاف قوامها الحكمة والتعقّل.

الكلمات المفتاحيّة: سيرة النبي محمد، القرون الوسطى، عصر الأنوار، فولتير، الدين الإسلامي.

Résumé:

Depuis une période lointaine, datant de l'époque médiévale, l'occident a formé une image du prophète Mohamed, une image variée dans ses aspects, différente dans ses détails. Tant de plumes ont écrit la biographie du prophète, la majorité d'entre elles, incitées par l'emportement du conflit islamo-chrétien l'ont dénigré .

Dans cet article, on a choisi de mettre en lumière la tragédie Le fanatisme ou Mahomet le prophète écrite par Voltaire qui fut l'un des pionniers des Lumières en France et en Europe, en essayant de la lire à la lumière de ses œuvres, s'appuyant sur les références qui ont servi de fondement pour constituer une première image offensive et une seconde qui était plus ou moins juste, sage et raisonnée.

Mots clés :

La biographie du prophète Mohammed, la période médiévale, L'ère des les Lumières, Voltaire, La religion musulmane.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1174

النبيّ محمّد في الأدبيّات القروسطيّة:

منذ بدايات الاحتكاك الثقافي والفكري بين الشّرق والغرب، بين العرب و الفرنج، بين الشرق المسلم وأوربا المسيحية، تمّ التّعاطي مع السّيرة النبويّة من زوايا نظر مختلفة، و بمرجعيّات متباينة المشارب، فأُنتجت في ظلّ ذلك ضروب من الخطابات الفكريّة والثّقافية و الأدبيّة تستحقّ الوقوف عندها، وتقليبها على وجوهها المتعددة.

وبدأت البحث، وعُدْتُ إلى تلك الحقب السابقة، فلم أعثر إلّا على إشارات و نتف تناثرت في ثنايا بعض الأعمال الإبداعية الشهيرة المكتوبة باللغة اللاتينية، والتي يعود زمن تأليفها إلى العصور الوسطى، ويمكن أن نذكر في هذا المقام ورود اسم النبيّ محمد في أكبر عمل ملحميّ ظهر خلال الحروب الصليبية في بداياتها، وهو "أنشودة رولان" La chanson de Roland التي صوّرت حربا ضروسا بين "شارلمان" ملك فرنسا والبطل "رولان" وبين المسلمين بوصفهم وثنيين، وظهرت شخصية النبيّ محمّد بوصفه إحدى الشخصيات المقدّسة عند المسلمين، وقد ورد اسمه في أبيات عديدة من الملحمة مقترنا بإلهين وثنيّين هما:

- أبولان" Apollin، كما في البيت الثامن مثلا: "إنّ الملك مارسيل عدوّ الله لأنّه يقوم على خدمة محمّد ويبتهل لأبولان."[1]
- و"ترفاجان" Tervagant كما في البيت 611 الذي يقول: "هناك عرشٌ من عاجٍ عَرَضَ مارسيل أمامه كتابا تضمّن بداخله ما يمكن أن يُقرأ عن مذهب محمّد و ترفاجان."[2]

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1174

وأوّل سؤال يمكن لسائل أن يطرحه هو: ما جدوى أن نعرف هذا التفصيل؟ و الحقيقة أنّ ما سيأتي من طرح سيبدي حاجة إلى معرفة ما الاعتقاد الذي كان سائدا قبل مرحلة الأنوار، وحتّى ما بعدها؟ ثمّ إنّنا لا يمكن أن نتصوّر أنّ هذا العمل منفصل نهائيّا عمّا كانت تعتقده أوربا ومسيحيّوها في تلك الفترة في هذا الجانب، وقد أورد مترجم الكتاب فيما ذيّله به من ملاحظات ما يلي: "يظهر من هذا البيت الشعري أنّ العصر القروسطيّ الفرنسيّ كان يجهل في الغالب أنّ المسلمين موحّدون، وكان يُعتقد أنّ محمّدا هو أحد آلهة المسلمين، وعادة ما يُذكر هو الأوّل مع "أبولان" و "ترفاجان"."[3]

كما يذكر الأدب اللاتيني في القرنين الثاني عشر والثالث عشر وجود سيرة للنبي محمد" Vita Mahumeti كتبها "أمبريكو دي ماينس" Embrico de Mayence، و Otia de Mahomete من تأليف "غوتييه دي كومبيان" Gautier De compiègne.

أمّا أقدم عمل أدبيّ يُنسب إلى الفرنسيين هو "رواية محمد" Le roman de Mahomet من تأليف "ألكسندر ديبون" Alexandre Dupont، وقد ظهر سنة 1258، وقُدّمت فيه شخصية رسول الله بوصفه رجلا عنيفا مخادعا، وساحرا شريرا شتّت جمع المسيحية، وهي الصورة ذاتها، وقد تكون أفظع وأبشع وأكثر قبحا وشناعة تلك التي قدّمها "أليجيري دانتي" Dante في عمله الشهير "الكوميديا الإلهية" (النشيد الثامن والعشرون) حيث وضعه في الدائرة التاسعة من جحيمه، الذي كان قد خصّصه للساعين إلى إحداث الفرقة والفتنة. و كان هذا العمل قد حظي في أوانه باهتمام واستحسان بالغين من متعصّبي القرون الوسطى من المسيحيّين، كما كان موضع سخط قديما و حديثا* ممّن رأوا فيه إزراء بالقيم الإنسانية وتشجيعا على الكراهية والعنصرية، حتّى إنّ جمعاً من المثقفين والباحثين الغربيين كانوا قد طلبوا

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1174

سنة 2012 من هيئة الأمم المتحدّة سحب عمل دانتي من البرامج المدرسية الإيطالية لأنّها "فضيحة أن يُجبر الأطفال المسلمون واليهود على دراسة الأعمال العنصرية مثل الكوميديا الإلهية."**

وما تحسن الإشارة إليه في هذا الموضع ، هو أنّ إحاطة صورة النبيّ محمد بهذه القتامة، وتشكيلها على هذا النحو الفظائعي في العصور الوسطى لم تكن فقط إفرازا لذلك الصراع المحتدم الذي لا يفتأ يخبو حتى يستعر بين العرب والمسلمين والإفرنج المسيحيين منذ أن حصل الاتصال بينهما (الحروب الصليبية، الحج، خلال وجود العرب في الأندلس...) وإنّما كانت استجابة لما كانت قد دَعَتْ إليه الكنيسة القروسطية من تشجيع على الاهتمام بالشرق لخدمة الأغراض ذاتها التي سعى الاستشراق القديم إلى تحقيقها، وهي الدّفاع عن المسيحية و عن بقائها وبيان استعلائها على الإسلام من جهة، وإثبات خداع "محمد" ودجله فيما يُعرف بالاتجاه الأبولوجي التبريري Apologétique.***

وقد أورد هشام "جعيط" عن أحد الباحثين الغربيين قوله:"إنّ استعمال العنف كان يُعَدُّ عالميّا من الخصائص العامّة المكوّنة للدين الإسلامي ويدلّ على رعب بديهيّة."[4]

"التعصّب" حوافّ المسرحية ومرجعيّاتها:

مرّت القرون الوسطى بأحقادها وصراعاتها، وجاءت النهضة، وبعدها التنوير، وازدهرت حركة الفكر والإبداع في فرنسا خاصة ، وتفجّرت القرائح أدبا وفكرا، وشاعت في أوربا الكتابات الفكرية والفلسفية، وظهرت منذ ذلك الحين أسماء كبيرة أبدت اهتماما بشخصية

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1174

الرسول العربي، وبرسالته التي كانت إلى ذلك الوقت تُنعت بالمذهب المحمّدي Le Mahometisme.

أمّا طرائق التناول فكانت تنوس بين:

- كتابة السيرة والتأريخ لمراحل حياة النبيّ بوصفه قائدا وسياسيا و رَجُلَ دولة، وهي الأكثر حضورا، وكان المستشرقون (من جورج سال Georges Sale، دو بولانفيليه Henri De Boulainvilliers إلى إرنست رينان Ernest Renan ومكسيم رودينسونMaxime Rodinson وغيرهم كثير...) في طليعة من اضطلع بهذه المهمّة، وقد ذهبوا في ذلك مذاهب شتّى.
- والكتابة الإبداعية التي أَوْلَتْ عنايتها لشخصيّته وأخلاقه و علاقاته بمن حوله، وقد انبرى لفيف من الأدباء والشّعراء(فولتير Voltaire ومن جاء بعده من الفرنسيين أمثال فيكتور هيجوVictor Hugo وألفونس دو لامارتين Alphonse De Lamartine ومن غيرهم غوته Goethe...) أطلقوا العنان لخيالاتهم ولأقلامهم لتَخُطَّ أعمالا إبداعية تفاوتت تناولا ورؤية وعمقا.

وكانت أكثر هذه الأعمال شهرة مسرحيّة "التعصّب أو محمّد النبيّ" Le fanatisme ou Mahomet le prophète لفيلسوف الأنوار "فولتير"، وفي اعتقادي أنّ مردّ شهرتها لا يعود فحسب إلى إهدائها للبابا "بونوا الرابع عشر" الذي أجابه شاكرا برسالة مؤثرة مَنَحَهُ فيها بركته المقدّسة، ولا يرتدّ إلى إهدائها إلى ملك بروسيا (فيديريك الكبير)، وإنّما إلى

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1174

الجدل الذي أثارته بين أدباء ومثقّفي ومفكّري ذلك العصر، عصر الأنوار، حول شخصية النبيّ محمّد نفسها، ونبرة العنف التي تعامل بها فولتير معه، والتي عَلَتْ على كلّ نبرة فيها.

ويحسن بي، وأنا أهمّ بالكتابة عن هذه المسرحيّة، أن أبحث عن السياقات و الدّوافع التي حَدَتْ بفولتير لأن يكتب بمثل ذلك العنف، و بكلّ تلك القسوة ليس في نظرنا نحن المسلمين، ولكن بمنظور مناخ التسامح الذي ساد عصر الأنوار، وكذا المسحة الإنسانوية Humaniste التي طبعت فكر تلك المرحلة وأدبها.

غير أنّ ما حفّ النّص من إهداء، وما تصدّره من تقديم، وما لحقه من آراء يغني عن كثير ممّا كنت سأتعّقبه بحثا و تقصّيا ودراسة.

اختار "فولتير" لنصّه عنوانا يبدو غير منسجم بين "التعصّب" و"محمّد النبيّ " فاصلا بينهما بحرف يفيد التخيير: "أو". وبقليل من التدبّر في الرابط بين الاسم المصدر "التعصّب" واسم العَلَم "محمّد" والصفة "النبيّ" يمكن أن نستجلي بعض التردّد في إطلاق حكم نهائيّ، فما شغل فولتير على امتداد حياته هو الوقوف في وجه كلّ أشكال الاستبداد والتطرّف و التعصّب، و الدّفاع في المقابل، عن التسامح والحريّة والعدل، فلا غرابة أن يجعل عنوان مسرحيّته "التعصّب" لكن أن يجعله موضع تخيير مع اسم "محمد" ويردفه ب "النبيّ" فلا شكّ أنّه أراد أن يمسّ جانبا مقدّسا، ومن ثمّة فهو لم ينفِ أن يكون محمّد نبيّا صاحب دين مقدّس مرسل من الله شأنه في ذلك شأن الديانة المسيحية، ولعلّ ذلك أن يكون من تأثير فكر الأنوار وتحرّره النسبيّ من المعتقدات القروسطيّة، ولكنّه من

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1174

جانب آخر لم يدّخر جهدا في تقديم النبيّ محمّد في أسوإ ما يمكن أن يوصف به بشر على نحو ما فعل سابقوه، وإن بصيغ أخرى.

كتب فولتير هذه المسرحية، ولعلّ أوّل سؤال خليق بأن يُطرَح ههنا هو: لِمَ اختار فولتير المسرحيّة شكلا إبداعيّا يُثير من خلاله مسألة التعصّب من خلال تعرّضه لشخصية النبيّ محمد؟

قبل أن نجيب عن هذا السؤال، حريّ بنا أن نشير إلى أنّ ما كُتِب عن النبيّ محمّد بأقلام غربيّة، منذ القرون الوسطى إلى عصرنا الحالي قد اتّخذ في مجموعه شكل السّير والدراسات والبحوث وحتّى المقطوعات الشعريّة (فيكتور هيجو) وأنّ ما ألّفه المستشرقون Les Orientalistes والباحثون في الإسلام Les islamologues، والمستعربون Les arabisants وهو كثير، لم يحرّك السواكن التي حرّكها هذا النص،خاصة لما ظهرت رغبة إعادة تمثيله وعرضه.****

ونعود للإجابة عن السؤال الذي كنّا طرحناه، ونتوسّع فيه قليلا: لِمَ المسرحيّة وليست الرواية أو السيرة مثلا؟

ونجيب بأنّ الرواية تُكتب أساسا لتُقرأ، وتُكتبُ المسرحيّة أساسا لتمثّلَ وتُعرض،وحصول المتعة وارد فيهما معا، ولكنّ متعة مشاهدة المسرحيّة أقوى أثرا وأشدّ إثارة للانفعال على الرغم من كونهما تركحان على التخييل، وتحيكان نسيجهما منه.

أمّا السّيرة فتجنح بطبيعتها إلى السرد الوقائعيّ، ولم يكن فولتير في هذا المقام، فيما أحسب، معنيّا بوقائعيّة، ولا مُحتفيا بالتزام موضوعيّة، أو تثبّت من حقيقة تاريخية.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1174

ويُستصفى من هذا أنّ المسرحيّة كانت اختيارا مقصودا واعيا وبراغماتيّا، فقد كان فولتير يراهن على هذا الجنس الأدبي لتمرير ما عنّ له تمريره من خطابات متقابلة متعاكسة يجلو بعضها بعضا، وسنأتي على تفصيل القول في ذلك في موضعه.

إذا، هي المسرحيّة "التعصّب أو النبيّ محمّد"، وقد وقعنا في مفتتح الطبعة التي اشتغلنا عليها على "تنبيه الناشرين" ، وقد أُشير في نهايته إلى كونه مقبوسا من (الأعمال الكاملة لفولتير – الجزء الثالث عن مطبعة المجتمع الأدبي سنة 1785).

ومن بين ما تضمّنه هذا التنبيه أنّ المسرحيّة قد عُرضت في أوّل الأمر كما هي في هذا النصّ المنشور، ولكن "بعد فترة حَذَفَ الممثّلون منها "هذيان سعيد" Le délire de Séide لأنّهم وجدوا صعوبة في أداء هذا الدور ، أمّا الشرطة فقد رأت أنّ في الأمر إساءة كبيرة أن يقول محمّد لأبي سفيان (زوبير): كلّا، يجب أن تساعدني على خداع العالم، فكان ما يقال في هذا الموضع لوقت طويل: "كلّا، يجب أن تساعدوني على إخضاع العالم."[5]

أمّا في التقديم الذي وُسم ب "رأي الناشر"، فقد تحسّسنا فيه حماسة الناشر وتعاطفه مع هذا العمل، و هذا بعض ما قاله: "أحسب أنّني أحسن صنعا بأن أُسدي خدمة لهواة الأدب الجميل بنشر تراجيديا التعصّب التي طالما تمّ تشويهها في فرنسا في طبعتين سِرِّيتيْن، وأعلم يقينا بأنّها كُتبت من طرف المؤلّف سنة 1736، وأنّه أرسل آنئذ نسخة منها إلى الأمير الملكي، وإلى ملك بروسيا."[6]

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1174

كما حرص الناشر على تتبّع المحطّات التي مرّت بها المسرحيّة، والمرّات التي عُرضت فيها، ومن حضرها من الأعيان والوجهاء ورجالات الدولة، وردود الفعل المتباينة حولها، ورَافَعَ بحماسة ضدّ أولئك الذين استهجنوا هذا العمل، وكانوا سببا في إيقاف عرضه لفترة، وتعريض صاحبه للمحاكمة.

أمّا الرسالة التي بعث بها فولتير إلى ملك بروسيا في روتردام في 20 جانفي سنة 1742، وأرفقها بنسخة من المسرحيّة، فقد وشّحها بتقريظ للملك بما فحواه أنّ "جلالته محبّ الفنون"، ووصفه ب"القاضي المتنوّر" و"الفيلسوف"، كما أودعها ما جال في خاطره عن المسرحيّة، وما دفعه للكتابة عن شخص النبيّ محمّد، وعن الإعراض الذي قوبلت به في بعض الأوساط.

وأوّل ما يبعث على الحيرة في هذه الرسالة ما صدّرها به، إذ يقول، وهو يعبّر عن تعلّقه بالملك، وألمه لفراقه لكرم العناية التي أحاطه بها: "أجدني الآن أُشبه حجّاج مكّة الذين تظلّ عيونهم معلّقة بهذه المدينة بعد مغادرتهم لها."[7]

وعلّة حيرتنا متأتّية من اختيار "حجّاج مكّة" بدل "حجّاج أيّ كنيسة" في العالم، ما الذي حدا بفولتير إلى اختيارٍ كهذا؟ ما الذي ذكّره بحجّاج مكّة الذين ارتضوا الإسلام دينا ومحمّدا رسولا؟ أهو الشوق الجارف، فلم يجد مثالا أقوى؟ أم هي الرغبة في استرضاء الملك حتّى لا يرميه هو بدوره بالتعصّب والتهجّم على النبيّ محمّد؟ خاصّة أنّه يخبره بأنّ هذه "نسخة جديدة من تراجيديا محمّد، وقد أردت أن يكون جلالة الملك أوّل من يرى خطوطها الأولى."[8]

لكن أظهر ما في هذه الرسالة هو ذلك التبرير الذي قدّمه "فولتير" بين يدي الملك، وأشهده من خلاله على نبل مقصده حين قال: "ويعلم جلالته أيّ روح كانت تحدوني وأنا أؤلف هذا

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1174

العمل. إنّه حبّ النوع البشريّ ومقت التعصّب، إنّهما الفضيلتان اللتان جُعلتا لتكونا لصيقتين بعرشكم."[9]

سلك "فولتير" هـنا مسلك المثقّفين المفكّرين الذين يحـــملون على عـاتقهم مـسؤولية الهمّ الإنسانيّ، وأبان عن دوافعه "حب الإنسان" و"مقت التعصّب"، ولـكنّ السؤال الذي يمكن توجيهه هنا هو: لماذا النبيّ محمّد تحديدا؟ لا سيّما أنّه ذكر في موضع آخر من هذه الرّسالة أنّ ثمّة في تاريخ الإنسانيّة العديد من الشخصيّات التي ارتكبتْ جرائم فـظيعة في حقّ البشر، وقد أورد بعض الأسماء، فلِم النبيّ محمّد؟

لمْ يُجِر "فولتير" جوابا في البدء، مضى في رسالته يُقِرّ بالضعف البشريّ، وبوجود الجريمة قديما وحديثا، ويُفنّد آراء من يزعم أنّ زمن الجرائم قد ولّى، و يعترف بأنّ ما كتبه عنيف وقاس، وأنّه أحدث رعبا على خشبة المسرح، ولكنّه يهدّىء من روعه بحجّة أنّ المؤرّخين قد أخبرونا بأفعال أكثر فظاعة من التي ابتدعها هو، ويسوق الأمثلة، ليتحوّل بعدها للحديث عن محنة المثقّفين والفلاسفة والمفكّرين(ديكارت بايل، ليبنتز...) وهو في كلّ هذا لا يفتأ يشيد بمركزيّة أوربيّة بنبرة استعلائيّة تحتفي باللوغوس، وتُغيّب بل وتحقّر من شأن من سواها: " إنّ العقل البشري يكتمل بالفلسفة التي تشهد تقدّما باهرا في أوربا...إنّنا نرى في هذا القرن الذي يُعلي فيه العقل عرشه في جانب، ما زال في جانب آخر، يقيم مذابحه."[10]

ولسنا نغالي إن قلنا إنّ فولتير هنا يجسّد مقولة: "إنّ المثقّف الفرنسي، وهو شخص من الدرجة الأولى في التاريخ الثقافي لأوربا، بدأ يبرز في نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر، يعتبر نفسه كاتبا أكثر منه عالما، وفكرا مستقلّا تجاه أجهزة السلطة، وناقدا لمجتمعه وواعيا لمسؤوليته، وهو، كما يقول برنانوس، مفعم بتفوّق الفكر."[11]

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1174

ولكنّنا إذا تدبّرنا في بقيّة ما طرحه فولتير في هذه الرسالة، وفي نصّ المسرحية، لا نكاد نقف على إعمال فكر بيّن ولا على إعلاء لشأن العقل جليّ، على الرغم من أنّه حاول في أكثر من موضع أن يبدو كما عُرف عنه "فيلسوف الأنوار" وأديبها ومثقّفها، يستدعي المنطق في رويّة، ويُحكِّم العقل بتسامح كبير.

ولا نجد ما نقيم به الدليل على ما نذهب إليه أقوى من قوله: "يمكن أن أؤاخذ على إطلاقي العنان لحميّتي في هذه المسرحية بأن جعلت محمّدا يرتكب جرما لم يكن قد جناه في الواقع."[12]

لا شكّ أنّ فولتير قد قرأ وسمع عن الإسلام، وعن سيرة النبيّ محمّد، ولذلك يقطع جازما بأنّ النبيّ محمّد لم يرتكب هذا الجرم أبدا، بل إنّه لا يجد غضاضة في الإحالة على بعض الكتابات التي سادت عصره وتناولت سيرة النبيّ بإعجاب كبير، وأحاطته بهالة من التمجيد "منذ سنوات، كتب السيّد الكونت بولانفلييه Boulainvilliers*****حياة هذا النبيّ، وقد حاول أن يُقدّمه لنا على أنّه الرَّجل العظيم الذي اختارته العناية الإلهيّة لمعاقبة المسيحيّين، وكي يغيّر وجه العالم، ومثل ذلك فعل السيّد "سال Sale "****** الذي قدّم لنا ترجمة ممتازة للقرآن بالأنجليزية، حين أراد أن ننظر إلى محمّد على أنّه "نوما"(الملك الثاني لروما يعود له وضع تنظيم الهيئات الدينية في روما قبل ميلاد المسيح بستة قرون) Numa وأنّه يشبه "تيزي"(ملك أسطوري أثيني ينسب إليه تنظيم التشريع الأول في أثينا) Thesée وأنا هنا أقرّ بأنّني كنت سأحترم محمّدا لو أنّه وُلد أميرا أخذ الحكم بشكل شرعيّ، أو أنّه جاء إلى الحكم عن طريق انتخاب مواطنيه فوضع القوانين السلمية كما فعل "نوما"، أو جاهر بالدفاع عن مواطنيه مثل "تيزي"."[13]

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1174

ههنا نبرة عدائيّة جاحدة انبعثت من حقبة قروسطيّة تسرّبت إلى هذا الخطاب المنتمي إلى التنوير، نبرة ترفض كلّ خطاب جديد يمكن أن يكون منصفا أو متسامحا، حتّى وإن صدر من شخصيتين عُرفتا بالعلم والعقل. وحقيق بنا ونحن في هذا الوضع الدّقيق أن نشير إلى أنّ الكتابات الغربيّة التي وُضعت عن النبيّ محمّد إلى الحين الذي كَتب فيه فولتير لم تنصف لا شخصه ولا ديانته ماعدا ما أتى هو على ذكره.

وكان بإمكاننا أن نلتمس الأعذار لفولتير لو لم يكن "فيلسوف الأنوار" ، لو كان مؤرّخا سكولاستيكيّا، أو أديبا شاعرا متأثّرا ب "أنشودة رولان"، أو كاتب ملاحم استوحى من "كوميديا دانتي"، ولكن الرّجل كان أوسع أفقا، وأعمق فلسفة، وأثرى تجربة، وأشدّ حرصا على نشدان الحريّة، وإطلاق العنان للفكر، وقد جاء في بعض تعريف معجم "لاروس" الفرنسي بأنّه "أمير الفكر."

ووجدت نفسي أردّد ما قاله "توفيق الحكيم" بعد قراءته المسرحيّة، و تحديدا بعد علمه بإهداء فولتير نسخة منها إلى البابا "بونوا الرابع عشر" حين قال:" ولقد كنت أحيانا ألتمس الأعذار لفولتير، وأزعم أنّه قال ما قال لا عن مجاملة أو ملق، بل عن عقيدة وحسن طويّة، استنادا إلى علم خاطىء بأخبار النبيّ، ولكنّ كتابه إلى البابا كان يتّهمه اتهاما صارخا، ويدع مجالا للشكّ في دخيلة أمره...منذ ذلك الحين وفولتير عندي متّهم، ولن أبرّئه أبدا، ولن أعدّه أبدا من أولئك العظام الذين عاشوا بالفكر وحده، وللفكر وحده."[14]

يشفّ خطاب "الحكيم" عن سخط كبير يثير لدينا الفضول لمعرفة مضمون الرسالة التي هذا نصّها: "فلتغفر قداستك لعبد خاضع، من أشدّ الناس إعجابا بالفضيلة، إذ تجرّأ فقدّم إلى رئيس الديانة الحقيقيّة ما كتبه ضدّ مؤسّس ديانة كاذبة بربريّة. وإلى من، غير وكيل ربّ السلام

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1174

والحقيقة، أستطيع أن أتوجّه بنقدي قسوة نبيّ كاذب وأغلاطه؟ فلتأذن لي قداستك في أن أضع عند قدميك الكتاب ومؤلفه، وأن أجرؤ على سؤالك الحماية والبركة، وإنّي مع الإجلال العميق أجثو و أقبّل قدميك القدسيتين."[15]

لا ريب في أنّ ما حوته ثنايا هذا الخطاب من تزلّف وتملّق ومغالطات يعادل أو يفوق صرامة الحكم الذي أصدره "الحكيم" في حقّ فولتير، ولكنّنا نرى أنّ مابين طيّات كتابه إلى ملك بروسيا يميط ما كان يتلفّع به من أقنعة التّجمّل والكياسة، ويكشف عن خطاب كالح متجهّم، لا يتورّع فيه عن أن يكون مبتذلا صلفا عنجهيّا مستعليا يقول فيه: "أن يثير تاجر إبل فتنة في قريته، ويستعين ببعض القرشيين البائسين ممّن جعلهم يقتنعون بأنّه يحاور المَلَكَ جبريل، ويدّعي بينهم بأنّه رُفع إلى السماء، و أنّه في أثناء وجوده فيها مُنح جزءا من هذا الكتاب الغامض الذي ترتبك المعاني في كلّ صفحة فيه، وأن يجلب إلى بلده الحديد والنّار لإجبارهم على التزام ما ورد في الكتاب، فيَذبح الآباء، ويسبي النّساء، ويعطي للمغلوبين الاختيار بين دينه والموت، أن يفعل كلّ هذا فذلك بالتأكيد ما لا يستطيع أيّ إنسان أن يغفره له إلّا أن يكون قد وُلد تركيّا (يقصد مسلما أو شرقيّا)، أو يكون التطيّر قد أطفأ بداخله كلّ نور طبيعيّ."[16]

لا يني فولتير يعرض وجهة نظره المتحاملة، بل إنّه لا يفتأ يهاجم ويشتم ويحتقر ويمعن في تجريحه، مجاهرا بافترائه قائلا: "أعلمُ جيّدا أنّ محمّدا لم ينسج خيوط هذه الخيانة التي شكّلت موضوع هذه التراجيديا، وتقول الرواية التاريخية بأن محمّدا قد أَخَذَ من سعيدٍ زوجتَه، وهو أحد تابعيه، وأنّه اضطهد "أبا سفيان" وقد سمّيته "زوبير"، ولكن في اعتقادي أنّ من يعلن الحرب على بلده، ويجرؤ على فعل ذلك باسم الله، بإمكانه أن يفعل كلّ شيء."[17]

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1174

وهكذا كان سمته على امتداد الفصول الخمسة التي تتكوّن منها المسرحيّة، ولا تكاد تخلو صفحة واحدة من نقد لاذع أو هجاء مقذع أو قذف مخلّ.

وتأسيسا على ذلك، فهو لم يشذّ قيد أنملة عن سابقيه من القروسطيّين الذين تغذّى مخيالهم على أحقاد حروب صليبيّة، ورواسب صراع دينيّ كان المسيحيّون يرون من خلاله الديانة الإسلاميّة ونبيّها على النحو الذي أخرجه "فولتير على ألسنة شخصيات المسرحيّة":النبيّ محمّد دجّال مخادع مراوغ دمويّ مجرم وحش شهوانيّ عنيف متعصّب، صاحب ديانة كاذبة أوقفت انتشار المسيحية، حتى إنّه جعله يصرخ في آخر المسرحيّة نادما معترفا بكلّ ما ارتكبه، وهذا بعض ممّا قاله:

"يا منتصر، يا قويّ

أنا أستحقّ العقاب

الجرائم الشّنيعة التي في قلبي

قد قضت بتعذيبي

أنا الّذي اتّخذ الله وسيلة لإلحاق الأذى بالبشر

هذا الجدير بالعبادة جعلته وسيلة للوصول إلى أغراضي المرعبة

أنت الذي جدّفتُ في حقّك ولكني ما زلت أخشاك

وأحسّ أنّي مُدان إذا أحبّني العالم

فقد خدعتُ الناس، ولم أستطع أن أخدع نفسي

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1174

انتقم يا إلهي لكلّ من حقّرتُ، للأرض ولنفسك وللسّماء

انزع منّي يومي هذا، و هذا القلب الخؤون

استر ضعفي، وأنقذ مجدي."[18]

يكاد هذا المقطع أن يكون ألطف ما ورد في المسرحيّة، وما عداه كان ممّا يمجه الذوق العام، وقد اعترض الامبراطور "نابليون بونابرت" على المستوى المسفّ الذي قدّم به فولتير النبيّ محمّد قائلا: " كان محمّد غرضا لنقده اللاذع في طبعه وفي وسائله، لقد أخلّ فولتير هنا بالتاريخ وبالقلب البشريّ. إنّه بلغ درجة الابتذال لما اختزل عظمة خلق محمّد في حبكات جدّ وضيعة، جعل رجلا عظيما غيّر وجه العالم يتصرّف كما يتصرّف أيّ شرّير كافر يستحق أن يوضع في المشنقة."[19]

فولتير: هل أنصف النبيّ محمّدا؟

هذا "النبيّ محمّد" هو الذي سيحضر في أغلب أعمال "فولتير" اللاحقة، وهي الأعمال الشهيرة التي عُرف بها فيلسوفا ومفكّرا ومؤرّخا، وأحد أقطاب التنوير الذين كان لهم الفضل في قيام الثورة الفرنسيّة.

يكاد الإجماع ينعقد على أنّ "مقالات في الأخلاق وروح الأمم" Essais sur les mœurs et l'esprit des nations هو صفوة ما كَتب "فولتير" فقد حوى تاريخا وفكرا وفلسفة وسياسة ودينا، و يذكر الدارسون أنّه اجتهد في كلّ ذلك أن يكون محلّلا موضوعيّا و ناقدا متجرّدا.

خصّص فولتير بعض فصول كتابه للحديث عن الإسلام و نبيّه وكتابه"القرآن"، منها الفصل السادس الموسوم بـ "عن الجزيرة العربيّة وعن محمّد"De L'Arabie et de Mahomet، والفصل

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1174

السابع الموسوم ب "عن القرآن والقانون الإسلامي" De l'Alcoran et de la loi musulmane، فضلا عن أعمال أخرى مثل مقال بعنوان "يجب أن نأخذ موقفا" Il faut prendre parti، الذي تضمّن جزءا بعنوان "خطابُ تركيٍّ" Discours d'un turc أمّا رسالته التي بعنوان"رسالة مدنيّة و نزيهة"Lettre civile et honnête فقد وردت ضمن رسائله الفلسفية المعروفة.

قد لا يتّسع المقام في مثل هذا الموضع للوقوف عند هذه الأعمال جميعا تحليلا وتفصيل قول، ولكنّنا نرى أنّ الضرورة تقتضي أن نسائلها و نرصد أهمّ ما ميّز خطاب فولتير فيها، فيما هو موصول بالإسلام و بالنبيّ محمّد.

في صدر حديثه عن النبيّ محمّد في فصل "عن الجزيرة العربيّة وعن محمّد" يقرّ فولتير بصحة وأصالة ما كُتب عن النبيّ من قبل معاصريه فيقول: "لم يوجد أحد من كلّ المشرّعين والغزاة من كُتبت حياته بمثل هذه الصحّة، ومثل ذلك التفصيل مثل محمّد...احذفوا من هذه الحياة (حياة محمّد) الخوارق التي ما زال هذا الجزء من العالَم مفتونا بها إلى اليوم، وما عدا ذلك فهو حقيقة لا مراء فيها."[20]

ليس ثمّة شكّ في أنّ لفولتير غرضا من إقراره هذا بعد الذي كان منه في مسرحيّة "محمّد"، إنّه يسعى لأن يكون أكثر إنصافا، ويكون خطابه أقلّ عنفا وحدّة، وما يؤيّد ما نراه هو استئناسه برأي علمين كان قد أبدى استخفافه بموقفهما، فقد أحال على ترجمة "جورج سال" واصفا إيّاه ب "العالِم و"الحصيف" الذي أقام بجزيرة العرب لمدّة خمس وعشرين سنة." [21] والتعامل ذاته كان مع "بولانفيلييه".

فهل أعاد فولتير قراءة عمليهما؟ أم أنّه أعاد النّظر في قراءته لهما؟

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1174

ليس هذا فحسب، فبعد تقديم نبذة عن حياة النبيّ ونسبه وطفولته وبعثته بغير قليل من التوجّس والرّيبة، عمد فولتير إلى دفع بعض الشبهات التي حامت حول النبيّ ومبادىء الإسلام من خلال مقارنته باليهوديّة حينا وبالمسيحيّة حينا آخر، فممّا قاله في هذا الباب: "هناك حكم مسبق كان قد راج بيننا يفيد بأنّ الدّين المحمدي La Mahométane لم يحرز أيّ تقدّم بسبب محاباته للميول الشهوانيّة، لو تأمّلنا كل الأديان القديمة في الشرق لوجدناها تقرّ تعدّد النّساء، وقد قلّص محمّد عدد الزوجات إلى أربع بعد أن كان العدد غير محدود آنذاك، وممّا أُثر عن سليمان و عن داود...كان هذان الملكان يشربان الخمر برفقة قريناتهما، وإذن، فقد كان الدين اليهوديّ شهوانيّا، أمّا دين محمّد فكان صارما." [22]

كانت عقيدة الإسلام وأركانه وفرائضه ونواهيه هي أبرز ما لفت انتباه فولتير، وحاز بعضٌ منها على إعجابه ممّا دفعه إلى المقارنة بينه وبين الأديان الأخرى، مفضّلا في غالب الأحيان الدين الإسلاميّ على غيره، و الأمثلة التي نسوقها تعضّد ذلك، فهو لا يتحرّج من الإقرار بأنّ "تعريفه (أي محمّد) لله أكبر حقّا من أن يوصف بالجليل"[23]، ويمضي بعد ذلك للاستشهاد من القرآن الكريم بسورة الإخلاص وشرحها لإقامة الدليل على ما يذهب إليه.

وعلى الرّغم من رسوخ بعض الأفكار المستوحاة من الأحكام المسبقة التي ورد بعضها في مسرحيّة "التعصّب"، وقد اندسّت في ثنايا بقيّة أعماله، فإنّ ذلك لم يبلغ به مبلغ جحود ما ألفاه متماشيا مع الفطرة، ومقبولا عقلا ومنطقا.

ففي فصل "عن القرآن وعن القانون الإسلامي" يؤكّد فولتير اكتشافه هذا الدّين بتعاليمه التي صيّرته متميّزا حقيقا بأن يُنزّل منزلة سَنيّة غير تلك التي وُضع فيها، ف"صرامة قوانينه وبساطة مذهبه سرّعتا بجلب احترام الناس له وثقتهم فيه، كما أنّ عقيدة توحيد الله

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1174

الذي تراءى واضحا دون غموض، متناسبا مع إدراك البشر جعل حشدا من الأمم تنضوي تحت لوائه."[24]

ونحن نمعن النظر في هذا الخطاب، يتبدّى لنا نشر فولتير الضوء على جوانب بعينها يؤسّس عليها رؤيته، ويستمدّ منها وجاهة رأيه: صرامة قوانين، وبساطة مذهب، وعقيدة توحيد، ووضوح، ...كأنّه يغمز من طرف خفيّ لممارسات في الديانات الأخرى كالمسيحيّة واليهوديّة التي يغلب عليها طابع الغموض والتعقيد، و على قوانينها المداورة و المداهنة.

ونعود لطرح السؤال ثانية: ما الذي قرأه فولتير حتّى يتراجع عن موقفه خاصة في اعتبار الإسلام "دينا بربريّا كاذبا" كما وصفه به؟ وما السياقات التي أحاطت بالكتابة عن النبيّ "محمّد"، وعن الإسلام في تلك المرحلة من تاريخ فرنسا علما أنّ الثّورة الفرنسية كانت قد بدأت تباشيرها تلوح في تلك الآونة؟

لم يُشِرْ فولتير إلى أمر كهذا إلّا تلميحا في "مقالات عن الأخلاق"، أمّا في أعماله الأخرى فإنّنا نقع على بعض الإحالات التوضيحيّة في المتن كما في الهامش، ففي "رسالة مدنيّة ونزيهة للمؤلّف غير النزيه في نقد التاريخ الكونيّ" Lettre civile et honnête à l'auteur malhonnête de la critique de l'histoire universelle ردّ فولتير على أحد وجهاء الأتراك الذي اتّهمه بالجهل وتحريف الحقائق حول الإسلام، وهنا فقط أفصح عن مصادره وكشف عن مرجعيّاته بقوله: "وأنا أُنقّب في المكتبة الشرقيّة".

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1174

– وأوّل هذه المرجعيّات وأهمّها على الإطلاق ترجمة القرآن الكريم، ويظهر ذلك في اقتباسه العديد من المقاطع منه، أو إحالته على بعض السّور، أو كما يسمّيها هو "الفصول" Les chapitres وكنّا قبل هذا قد ذكرنا إعراضه عن ترجمة "سال" ثمّ عودته إليها.

يُضاف إلى ذلك:

– تصريحه باطّلاعه على أعمال أحد أبرز مؤرّخي الإسلام في القرن الرابع عشر هو أبو الفدا"(ت1331م) الذي نَعَتَهُ ب "العلّامة المبجّل"، وضع "أبو الفدا" سيرة للنبيّ محمّد قام على ترجمتها المستشرق الفرنسيّ "جان جانيي" Jean Gagnier " سنة 1732 وأخرجها بهذا العنوان "حياة محمّد تُرجِمتْ وجُمِعتْ من القرآن مع ترجمات أصليّة للسُّنة ولأفضل المؤلّفين العرب."[25] La vie de Mahomet traduite et compilée de L'Alcoran avec des traductions authentiques de la Sounna et des meilleurs auteurs arabes

فمن المواضع التي استدعى فيها فولتير رواية "أبو الفدا" تعرّضه لموقف النبيّ محمّد من النّساء، ويفنّد الرأي القائل بأنّ النبيّ يقصي النساء من الجنّة: "ليس صحيحا أن يكون قد أقصى النساء من الجنّة، لا شيء يجعل رجلا بارعا مثله يحبّ أن يفسد الأمر بينه وبين هذا النّصف الثاني من الجنس البشريّ الذي يقود النّصف الأوّل." [26]

– هناك اسم عربيّ ثانٍ أورده "فولتير" ضمن من عاد إليهم في جمع مادّته هو "Albedavi" وقد اجتهدت في البحث عن هذا الاسم، أو ما يشبهه في تراثنا العربي "البدوي" أو "البدعي"، فلم أعثر على شيء ذي بال، والأرجح أنّه اسم فارسيّ أو تركيّ.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1174

– أشاد فولتير باسم مستشرق إنجليزي هو "همفري بريدو" Humphrey Prideaux ونعته هو أيضا بالعلّامة المبجّل، ويبدو أنّه ألّف سيرة النبيّ محمّد بالإنجليزية سنة 1697، وترجمت إلى الفرنسية سنة1698.

– بعد أن أظهر "فولتير" الكونت "هنري بولانفيلييه" مبالِغا في تعظيمه النبيَّ محمّد في كتابه "حياة محمّد، عن القرآن وأخلاق العرب، تأمّلات في الدين المحمّدي والتقاليد" La vie de Mahomed,de L'Alcoran et les mœurs des arabes, réflexions sur la Mahométane et les coutumesلتشبيهه إيّاه بالقائد الأسطوري اليونانيّ "تيزي" الذي وضع التشريع الأوّل لأثينا، رجع إليه ثانية ليستند إلى بعض آرائه في الحكم على النبيّ محمّد وعلى العرب، وينكر عليه بعضها الآخر، فهو يقول: "كان الكونت "دو بولانفيلييه" معجبا بمحمّد، وقد حاول عبثا أن يفتخر بالعرب."[27] وإنّنا لا نغالي إذا ما رأينا أنّ تأثّر فولتير بكتاب"بولانفيلييه" أقوى من تأثّره بأيّ كتاب آخر، بدءا بالشّبه بين عناوين أعمالهما، إلى الموضوعات المطروحة فيهما: حياة محمّد، القرآن، الدّين الإسلاميّ أخلاق العرب...

وفي هذا السياق نودّ أن نورد مقطعا من كتاب "دو بولانفيلييه" يوضّح فيه مذهبه في التعامل، فهو يقول: "يحسن بالقارىء في هذه الحالة أن يحكم على مختلف الظروف الزمنيّة التي ظهر فيها، والأحكام المسبقة التي قيلت في حقّه سواء أكانت مؤيّدة له أو معارضة، والترتيبات التي هيّأتها العناية الإلهية، و كذا الطبيعة للقيام بذلك التغيير الضخم الذي لا يتأتّى لأيّ إنسان أن يحدثه في الكون إذا كان مثله وحيدا ضعيفا و لا يملك الوسائل."[28]

إنّ ما يُستشفّ من كلام هذا المؤرّخ يدلّ دلالة واضحة على خضوعه لمقتضيات الطرح العلميّ مقترنا بإيمان يقينيّ بالطابع الإلهيّ للرسالة المحمّديّة، وهذا ما يختلف فيه الرّجلان، فهُمَا، وإن

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1174

التقيا في ركونهما إلى رؤية فلسفيّة متشابهة (فلسفة الأنوار)، فإنّهما يتوازيان في وضعها محلّ الإجراء، "فالمتأمّل في كتاب بولانفيلييه "تاريخ العرب ومحمّد" يلحظ فيه بيسر أثر الحركيّة العقلانيّة التنويريّة منهجا ومحتوى، فقد تصدّى صاحبه بشجاعة تستحقّ التنويه، للردّ على هذه الصّورة المحرّفة المشوّهة عمدا للعرب والإسلام والرّسول." [29] ثمّ إنّ مواهب فولتير المتعدّدة تسهم بقسط وافر في توجيه كتاباته وجهتها الخاصّة، فهو ليس مؤرّخا وفيلسوفا فحسب، وإنّما هو شاعر وروائيّ و كاتب تراجيديّات، وهو فوق ذلك محدّث بارع لا يشقّ له غبار في الاحتجاج والاحتكام إلى العقل.

وغاية ما نخلص إليه، أنّ صاحب مسرحيّة "التّعصّب" كان في أوّل أمره ساخطا على الإسلام (بربريّ كاذب)، ناقما على نبيّ الإسلام (مخادع دجّال مجرم شهواني...)، وقد أيّده في ذلك أغلب معاصريه، أمّا الذين ثاروا عليه، أو عارضوه فكانوا يخشون أن يُفْهَمَ حديثه عن التّعصّب على أنّه بعض ما تمارسه الكنيسة فينال بذلك من هيبتها، وأمّا من درسوا فولتير فيما بعد، فقد رجّح أغلبهم أن يكون قد صدر في مسرحيّته عن رغبة في فضح عدم تسامح الكنيسة الكاثوليكية، والجرائم التي ترتكبها باسم المسيح، وإدانة كلّ أشكال التعصّب الدّيني على إطلاقها.

وينتصب سؤال بديهيّ هنا: إن كان فولتير قد كتب عن النبيّ محمّد مسرحيّة التعصّب بدافع فضح الكنيسة، فما النّية التي كانت وراء ما كتبه عنه فيما سواها، وهو في عمومه مختلف عمّا ورد في المسرحيّة؟

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1174

لا يُساور متتبّعُ مسار كتابات "فولتير" أدنى شكّ في كونه قد عدّل موقفه من الإسلام ومن النبيّ محمّد، وأنّه تخطّى مسألة التعديل ليتجاوزها إلى الإنصاف ليصل إلى الإعجاب، وفي اعتقادنا ما كان ذلك ليقع لو لم تتضافر عوامل عديدة منها، تحرّره من تأثير القروسطية حين تخلّى عن الأحكام المسبقة، و إيمانه الحقيقيّ بالدّفاع عن مبادىء التسامح و العدالة والحريّة حتّى إنّه ألّف سنة 1766 عملا وسمه ب: "بحث في التسامح" Traité de tolérance واستئناسه في إصدار أحكامه بما ساد في عصره من كتابات علميّة رصينة وموثّقة، وانخراطه في سياقات اقتضت أن يقف فيها موقف المفكّر الحصيف الذي يحاور بعلم واسع و منطق مقنع كما هو الشأن في "رسالة مدنيّة..." و"خطابُ تركيٍّ" وغيرهما.

وحتّى لا نلقي كلاما على عواهنه، فإنّنا نضرب مثالا لذلك بما قاله عن محمّد ودينه بشكل جليّ وصريح: "إنّ دينه حكيم وصارم وطاهر وإنسانيّ؛ حكيم لأنّه ينزّه الله عن أن يكون له شركاء، إنّه دين خال من الغموض؛ وهو صارم لأنّه يحرّم ألعاب الحظّ والخمر، وكلّ المشروبات الرّوحية القويّة، كما أنّه يأمر بالصّلاة خمس مرّات في اليوم؛ وهو طاهر لأنّه قلّص العدد الضخم للنساء اللواتي كنّا يقاسمن أمراء الشرق أَسِرَّتَهُمْ فجعلهنّ أربعة؛ وهو إنسانيّ لأنّه يأمرنا بالصّدقة ويشدّد في ذلك أكثر ممّا يأمرنا بالسّفر إلى مكّة، ويُضاف إلى كلّ هذه الميزات الحقيقيّة، ميزة التسامح."[30]

لا حاجة بنا ونحن نقرأ هذا الخطاب إلى استكناه ما يثوي في مجاهله من دلالات، ولا ما يحفّه من إيحاءات، فقد بدا مباشرا معلَّلاً، يرفع لبساً ويزيلُ شبهاتٍ حامت وما تزال حول الإسلام وعقيدته: فهو عنده دين يقوم على عقيدة التوحيد، وفي صرامة أوامره و نواهيه سموّ بالإنسان،

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1174

ووضْعُ المرأة فيه قد تحسّن عمّا كان سائدا، فضلا عن كونه يأمر بالصدقة، ويدعو إلى التسامح.

هذه الصيغة التقريرية وشبيهاتها حاضرة بقوّة فيما كتبه فولتير في هذا الجانب، فقد أشاد في موضع آخر بالزّكاة التي لم يأمر بها دين على هذا النّحو من التّشديد والضّبط حيث حُدّد نصيبها بنسبة معيّنة، وكان له الموقف ذاته مع الصّيام حتّى إنّه يتحدّى أن يكون أحد من غير المسلمين قادرا على الامتناع عن المفطرات طوال يوم كامل، بل إنّه تطرّق للبحث في علّة تحريم الخمر ولحم الخنزير وغيرهما وفق رؤيته الخاصّة طبعا.

ولكن في مقابل كلّ هذا، لم يستطع فولتير أن يحصّن نفسه من طغيان نزعة التمركز التي استحوذت على فكره فجعلته لا يرى العالم إلّا من خلال ما يتناغم مع الأنا من جهة، ويُعطيه حقّ الوصاية على الآخر فيقيسه بمقياسه، و يحكم عليه من منظوره من جهة أخرى، فالنبيّ محمّد: "قوانينه المدنيّة جيّدة، ومذهبه مثير للإعجاب فيما هو متطابق مع ما هو عندنا، ولكنّه وسائله مرعبة، هي الاحتيال والقتل." [31]

وأيّا كان الشأن، فما كتبه فولتير عن النبيّ محمّد مثلما لقي هوى في نفوس بعضهم، فإنّه قد أثار فضول الكثيرين فشرعوا في البحث والتقصّي، وقد حفل القرن التّاسع عشر وما بعده بأعمال العديد من رجالات الفكر والأدب والسياسة مثل "هيجو" و"لامارتين" وغيرهما ممّن توفّرت لديهم معرفة أكبر، واطّلاع أوسع، واحتكاك أقرب فكانوا أوضح رؤية، وأكثر موضوعيّة.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1174

الهوامش:

1-La chanson de Roland Edition Pierre Jonin, Gallimard, Collection Folio, Paris, 1979,p31.

2- المصدر نفسه، ص53.

3 – المصدر نفسه، ص 180.

*و لم أجد فيما أنا بصدده من قوّة مثال أسوقه حاليّا عن تبرّم المثقفين الغربيين بما ورد في الكوميديا الإلهية من تصريح الكاتب والناقد الفرنسي الشهير "فيليب سولرس" Philippe Sollers حين قال:" هذا "الدانتي" الذي يُحتفَى به في روما، يحمل ساديّة مرعبة،...قد يكون أنّ الأوان قد آن لحظه أو حذف كتابه، كما تبدو الدعوة إلى مظاهرة كبرى للمطالبة بالاحتفال بحرقه أمرا لابدّ منه." فيليب سولرس، نشرة الأحد، 2006/02/26.

**كانت جمعية جوريش" Gerush من الرواد في هذا الاتجاه.

***الأبولوجي التبريري .Apologétique الكنسي، يعني الدفاع عن العقيدة المسيحية ضد اليهود والوثنيين والأباطرة والفلاسفة مع تأكيد المصداقية العقلانيّة والتاريخية للعقيدة المسيحية.

****في سياق مسألة الكاريكاتور المسيئة إلى الرسول (ديسمبر 2005 – أفريل 2006) كانت هناك رغبة في عرض المسرحية في فرنسا و في سويسرا، وقد اتَّهَمَ المخرجُ المفكرَ الإسلاميَّ طارق رمضان بتحريض لسلطات على مصادرتها ومنعها.

4- هشام جعيط، أوربا و الإسلام، صدام الثقافة والحداثة، دار الطليعة، بيروت،، ط3، 2007، ص

5-Voltaire, Mahomet le prophète, Christian Bourgois Editeur,2006, France, p7.

6- المصدر نفسه، ص9 .

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1174

7- المصدر نفسه، ص15.

8- المصدر نفسه، ص نفسها.

9- المصدر نفسه، ص نفسها.

10- المصدر نفسه، ص19.

11- هشام جعيط، أوربا و الإسلام، ص19 .

12- المصدر السابق ،ص19.

***** هنري دو بولانفيلييه: مؤرّخ وفيلسوف فرنسيّ، عاش في القرن 18.

****** جورج سال: مستشرق إنجليزي (القرن 18)، كتب مقدّمة لترجمته للقرآن الكريم أثنى فيها على النبيّ محمّد.

13- المصدر نفسه، ص19.

14- توفيق الحكيم، تحت شمس الفكر، مكتبة الآداب، القاهرة، 1937، ص18-19.

15- المرجع نفسه، ص 17.

16- Voltaire, Mahomet le prophète , p19-20

17- المصدر نفسه، ص 20.

18- المصدر نفسه، 105.

19- Voltaire, Essais sur les mœurs et l'esprit des nations, De l'Arabie et de l'Alcoran, tome VI, in œuvres de Voltaire, Lefévre Librairie, Paris, p75.

20- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1174

21- المصدر نفسه، ص95.

22- Voltaire, Essais sur les mœurs et l'esprit des nations, De l'Arabie et de l'Alcoran, tome VII, in œuvres de Voltaire, Lefévre Librairie, Paris, p98.

23- المصدر نفسه، ص 103.

24- www.Gallica

25- Voltaire, Essais sur les mœurs et l'esprit des nations, De l'Arabie et de l'Alcoran, p105.

26- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

27- Henri de Boulainvilliers, La vie de Mahomed, Londres chez P.Humbert, 1730, p97.(www.Gallica).

28- Voltaire, œuvres de Voltaire, Il faut prendre parti, chap23, Discours d'un turc, p 357.

29-Voltaire, Essais sur les mœurs et l'esprit des nations, De l'Arabie et de l'Alcoran, p105.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1174